مقدمة:

شهدت العقود الخمسة الأخيرة تزايدا معتبرا في الدراسات والبحوث، في السنن الإلهية، من حيث التأصيل، قرآنا وسنة، ومن حيث استثمارها في حياة الأفراد والمجتمعات، والدول والحضارات.

لا شك أن هذه الدراسات والبحوث في السنن الإلهية الناظمة للكون والحياة والإنسان، قصد استثمارها في إدارة الحياة، مؤشر إيجابي يدل على يقظة فكرية واعية ومبصرة، لأهمية هذه السنن.

والاهتمام بالسنن الإلهية، في الحقيقة، بدأ مبكرا عند العلماء المسلمين، لكنه لم يكن عميقا تأصيلا واستثمارا، لذلك بات من الضروري القيام بالمزيد من البحوث والدراسات، حتى تصبح السنن الإلهية علما قائما بذاته، على غرار علم مقاصد الشريعة، على سبيل المثال.

ويُعتبر المفكران مالك بن نبي والطيب برغوث من بين الذين اهتموا بالسنن الإلهية – من المعاصرين – بشكل ملحوظ؛ فالأول كان من المؤسسين البارزين للمدرسة السننية ذات الاتجاه الحضاري، والثاني قام ببلورة منظور السننية الشاملة، بفضل تعمقه في دراسة السنن الإلهية أفقيا وعموديا.

وبالنظر إلى الإبداع الذي تميز به الطيب برغوث، من خلال منظور السننية الشاملة، أُنجزت رسائل وأطروحات جامعية، تناولت منظوره من مداخل مختلفة، كما عُقدت ملتقيات[1] ضمت مباحث ودراسات حول ذلك المنظور.

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى بيان منهج مالك بن نبي "المركب"، في دراسة "مشكلات الحضارة"، وصناعة "إنسان الحضارة"، وكيف كان مبادرا في النفاذ إلى جوهر إحدى أهم المنظومات المشكلة لخريطة منظور السننية الشاملة؛ ألا وهي منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل، القائمة على استثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، بشكل متوازن وتكاملي، غير تجزيئي، وغير تنافري، في حياة الأفراد والمجتمعات والدول والحضارات، من أجل معالجة تلك المشكلات، وصناعة ذلك الإنسان، مع بيان موقع ذلك من منظور "السننية الشاملة" عند الطيب برغوث.

وعليه، قمنا بداية، ببيان مفهوم السنن والمعرفة السننية، وأهميتهما المنهجية، ثم قمنا بعرض مركز لمنظور السننية الشاملة عند الطيب برغوث، ثم وضحنا ماهية منهج مالك بن نبي في دراسته لمشكلات الحضارة، وصناعة إنسان الحضارة، مع الإشارة إلى سبق مالك بن نبي في استثمار بعض أبعاد منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل، ثم بينا موقع منهج مالك بن نبي من ذلك المنظور الشامل، وختمنا البحث بذكر أهم ما توصلنا إليه من نتائج.

---

[1] خُصص الملتقى الأول الموسوم بـ: البعد الحضاري للسنن الإلهية في القرآن، أساسا لمنظور السننية الشاملة، وانعقد يوم 30 جوان 2021 بجامعة وهران 1 أحمد بن بلة. وكان الملتقى الثاني امتدادا للأول وموسوما بـ: فقه السنن الحضارية بين التحديات والتطلعات، وانعقد يوم 6 جوان 2022 بنفس الجامعة.

أولا – مفهوم السنن والمعرفة السننية وأهميتهما المنهجية:

بُني الكون على نظام دقيق بديع، " ليس فيه عبثية، بل كل شيء فيه مخلوق وموزون وفق غائية ومقاصدية دقيقة، محكمة ثابتة، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: 49] أي: بنظام وحكمة وغائية وميزان دقيق، يحافظ على هويات أو ذاتيات المكونات الكونية، ويجعلها صالحة ومهيئة للتسخير، بشكل مطرد لا يتأخر"[2]، وتلك الأنظمة الذاتية المودعة في المفردات الكونية الموزعة في عوالم الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، من أجل أن يؤدي كل منها وظيفته الذاتية، التي تحافظ على هويته ووجوده واستمراريته من جهة، وعلى وظيفته التسخيرية الكونية المرتبطة ببقية المفردات الكونية الأخرى، ذات الصلة بها من جهة أخرى؛ هي ما يعرف بالسنن[3]، أي أنها تلك القوانين الثابتة المودعة في تلك العوالم، من أجل أداء وظائفها التسخيرية المنوطة بها في الكون، "تحقيقا للتناسقية والتكاملية والتوازنية الكلية التي ينتظم بها الوجود الكوني كله، ويحافظ على توازنه، وتتحقق به الغائية والمقاصدية التي وجد من أجلها[4].

وبناء على هذه الدقة وهذا الإتقان في النظام الكوني كله، عبر سنن وقوانين ثابتة مطردة[5]، "فإن المقصود بالمعرفة السننية هنا، هي المعرفة العلمية المطابقة لحقائق الوجود الإلهي والكوني والإنساني، أو التي تتحرك نحو ذلك باستمرار، وتعمل على استكشاف **سنن الله تعالى في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، والتحقق منها، ونشر الوعي بها بين الناس، وتمكينهم من ضبط تفكيرهم وسلوكهم وعملهم وعلاقاتهم بالله والكون والحياة، على ضوء معطياتها ومقتضياتها بشكل مستمر" [6]، لأن الوقوف على السنن يكسب العلم بحقائق الأشياء، ويُمكّن من القدرة على الانتفاع بها في إدارة الحياة والعلاقات الإنسانية والطبيعية والكونية، بشكل صحيح وفعال ومتوازن وآمن. كما أن من جهل هذه السنن، أو تجزأت معرفته بها وتنافرت، فمعرفته تكون مظنونة أو مشوبة بالخرافة والوهم والتخرص والتنافرية، وحياته ستعاني من كثير من أشكال المصادمة لهذه السنن الغلاّبة، التي تسلب من حياة الإنسان الكثير من خيريتها وبركتها ورحمتها العامة المطلوبة، وتضر بمصيره الأخروي[7].

ولا يمكن الوصول إلى هذه المعرفة السننية، والاستثمار فيها بطريقة فعالة؛ إلا بالالتزام بمنهج دقيق في التفكير وفي العمل، يتميز بخصائص وسمات، تجعله مفتاحا[8]:

---

[2] الطيب برغوث، السننية الشاملة، مركز الشهود الحضاري، إسطنبول– تركيا 1443هـ/ 2021م، ص 26.

[3] المرجع نفسه، ص 25.

[4] المرجع نفسه، ص 26–27.

[5] المرجع السابق، ص 27.

[6] المرجع نفسه، ص 27.

[7] المرجع نفسه، ص 16.

[8] المرجع نفسه، ص 17–18.

– للتحليل والتفسير والفهم الصحيح للظواهر المركبة.

– لاستشراف آفاق هذه الظواهر الكلية، والتخطيط الصحيح لإدارتها بفعالية.

– لتحقيق الوقاية الشاملة للمنجزات، وضمان استمراريتها.

ومن ثم نقرر في ختام هذا المبحث؛ أن " كل حياة لا تتأسس على المعرفة فهي بلا روح، وكل معرفة لا تتأسس على منهج فهي فوضى، وكل منهج لا يتأسس على سنن الله في خلقه فهو تخبط. وكل حياة أو معرفة أو منهج أو سنة لا تستهدف تحقيق الترقي التربوي النوعي المستمر في حياة الإنسان، فهي هدر للوقت، وتبديد للجهد، وتكريس للاختلال، وتعميق للضعف في حياة الأفراد والمجتمع والأمة، وتنكب عن طريق ومنهج الاستخلاف الذي كرم الله به بني البشر "[9].

ثانيا – منظور السننية الشاملة عند الطيب برغوث:

بدأ المفكر الطيب برغوث (المولود في 20 أفريل 1951م)، بالاهتمام بموضوع السننية في سن مبكرة، كما أعرب عن ذلك قائلا: " فمنذ نصف قرن تقريبا من القراءة والبحث والتدريس والتأليف والتأمل المباشر في موضوع السننية، تبين لي بأن " **السننية** " هي روح الحياة والوجود عامة، إذ أن كل شيء فيهما مخلوق بنظام دقيق موزون، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: 49]"[10].

وقد كان من أهم الروافد التي اعتمد عليها في ذلك، كتابات المفكر مالك بن نبي (1905–1973م)، وما شهده من محاضراته، ثم لم يلبث أن صار يدندن حول ما أسماه منظور " السننية الشاملة"؛ وأهمية الوعي به، باعتباره بؤرة الوعي السنني، ومركز الثقل فيه، وباعتبار أن الوعي السنني الجزئي أو الشبكي، أمره يسير والتراكم فيه سريع، بحكم التعليم والتربية والتجربة والاحتكاك، وتضاعف الخبرات وانتقالها عبر المجتمعات.

ولذلك يرى الطيب برغوث، أننا إذا لم نعرف خريطة النواظم السننية الكونية الكلية، التي تتحرك وتستثمر في إطارها المعرفة السننية الجزئية الهائلة المُحصَّلة، فإن ذلك سيشكل خطرا كبيرا على حياة الأفراد والمجتمعات البشرية، ولهذا انصب اهتمامه على المساهمة في بلورة هذه الخريطة السننية الكلية من خلال منظوره، وحرص على تبليغ ذلك لأجيال المجتمع والأمة، وحاول إقناعهم بأن طريق التكامل الذاتي للأفراد، وطريق النهضة الحضارية المكينة للمجتمعات، وتحقيق الخلافة البشرية الرشيدة في الأرض، والتوقي من

---

[9] الطيب برغوث، سلطة المنهج في الحركة النبوية، الجزائر، دار النعمان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2019 م، ص 07.

[10] الطيب برغوث، السننية الشاملة، مرجع سابق، ص 15.

مخاطر الغثائية والتبعية الحضارية، يمر حتما عبر الوعي الفكري بهذا المنظور، والتجسيد العملي لمعطياته في حركة الحياة[11].

وإذا كان منظور "السننية الشاملة" بهذه الأهمية الكبيرة وهذه القيمة المحورية الحاسمة في حياة الناس، أفرادا ومجتمعات وأمما وحضارات، فلعل سائلا يسأل عن ماهية منظور " السننية الشاملة "، وما هي معالمها الكبرى؟

1- منظور السننية الشاملة:

عرَّف الطيب برغوث منظور السننية الشاملة بصيغ متنوعة، تصب كلها في المقصد الكلي للمنظور، يمكننا تلخيصها في هذا التعريف:

منظور السننية الشاملة؛ هو:" الرؤية الكونية الشاملة، لشبكة المنظومات السننية الكلية المطردة، الناظمة للوجودين الكوني والبشري، من أجل تكامل وتوازن حياة الإنسان، وفعاليتها وخيريتها وبركتها ورحمتها في الدنيا، والاستعداد بجدية وكفاءة للحياة الأبدية في الآخرة".[12]

ونلاحظ أن هذا التعريف انبنى على أربعة محاور، "هي: طبيعة المنظور (رؤية كونية شاملة)، والقاعدة المركزية التي تأسس المنظور عليها (شبكة من المنظومات السننية الكلية المطردة)، والوظيفة (انتظام الوجودين الكوني والبشري)، والغاية (تكامل وتوازن حياة الإنسان، وفعاليتها وخيريتها وبركتها ورحمتها في الدنيا، والاستعداد بجدية وكفاءة للحياة الأبدية في الآخرة)."[13]

2- المنظومات السننية الأربع

يتكون منظور السننية الشاملة من أربع منظومات سننية كبرى:

1- منظومة سنن الوعي الكوني الغائي الشامل: التي تحدد للإنسان "غايات الحياة العاجلة والآجلة ومقاصدها، للوجودين الكوني والإنساني، وعلاقاتهما بالله تعالى الموجد لهما، والمدبر لأمرهما، والمسخر لكل منهما لما وجد من أجله، والمهيمن على مصائرهما."[14]

---

[11] الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، الجزائر، دار النعمان للطباعة والنشر، ط 1، 2019 م، ص 08 - 09.

[12] عيسى بوعافية، ماهية " السننية الشاملة "، سبتمبر 2023، https://www.facebook.com/mountada.aldirassat

[13] المرجع نفسه.

[14] الطيب برغوث، السننية الشاملة، مرجع سابق، ص 22-23.

فهذه المنظومة تجيب عن التساؤلات الكبرى التالية: من هو الانسان؟ ما حقيقته؟ ما علاقته ببقية المكونات الكونية الأخرى؟ ما مركزه في الوجود؟ ما دوره فيه؟ ما هي الإمكانات التي زُود بها أو يمتلكها لأداء هذا الدور في الحياة؟

2- منظومة سنن الوعي الاستخلافي الشامل: التي ترشد الإنسان "إلى كيفية تحرك الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض؛ في مساراتها التكاملية المتوازنة الصاعدة، أو التنافرية المختلة المتقهقرة، والشبكات السننية الكلية التي تقف وراء ذلك كله، وتُنظّمه في الاتجاهين بشكل مطَّرد."[15]

فهذه المنظومة تجيب عن هذا التساؤل الكبير: ما هي القوانين الكلية التي تحكم الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، قوة وضعفا، أو صعودا وتراجعا؟

3- منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل: التي ترشد الإنسان إلى "المؤثرات المباشرة الحاسمة على الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض؛ في قوتها وانسجامها وخيريتها وبركتها ورحمتها وصعودها، أو في ضعفها واضطرابها وتنافريتها وضنكيتها وتراجعها."[16]

فهذه المنظومة تجيب عن التساؤلات الكبرى التالية: ما هي إمكانات وشروط التحقق بالتوحيد والعبودية لله تعالى، والخلافة له في الأرض؟، وكيف تتم إقامة العمران الحضاري فيها؟ وكيف نستثمر ذلك كله في تهيئة المصير الأخروي للإنسان؟

وهي تجيب كذلك على السؤال: هل يملك الإنسان كل الإمكانات والقدرات التي تعينه على إنجاز ما حددته له المنظومة الأولى، ومواجهة تحديات المنظومة الثانية؟

4- منظومة سنن الوعي الوقائي الحضاري الشامل: التي تمكِّن الإنسان من "المحافظة على منجزات حركته الحضارية، وضمان استمراريتها الصاعدة، على خط الفعالية والرشد والخيرية والبركة والرحمة العامة، لأكبر فترة زمنية ممكنة، وإبعادها عن الحركة على خط التيه والفساد والضعف والضنكية الحضارية، المؤثرة سلبا على الحياة الدنيوية للناس وعلى المصائر الأخروية لأصحابها."[17]

فهذه المنظومة تجيب عن التساؤل الكبير: كيف يحمي الإنسان منجزات حركته الحضارية في كل مراحلها (المبكرة والمرافقة والاستدراكية)، ويحافظ عليها، ويضمن استمراريتها الصاعدة أكبر فترة زمنية ممكنة؟

---

[15] المرجع نفسه، ص 23.

[16] المرجع نفسه، ص 23.

[17] المرجع السابق، ص 23-24.

وبناء على ما سبق ذكره، يمكننا رسم معالم خريطة منظور السننية الشاملة، المستمدة من القرآن الكريم[18]، على النحو المبين في الشكل 1.

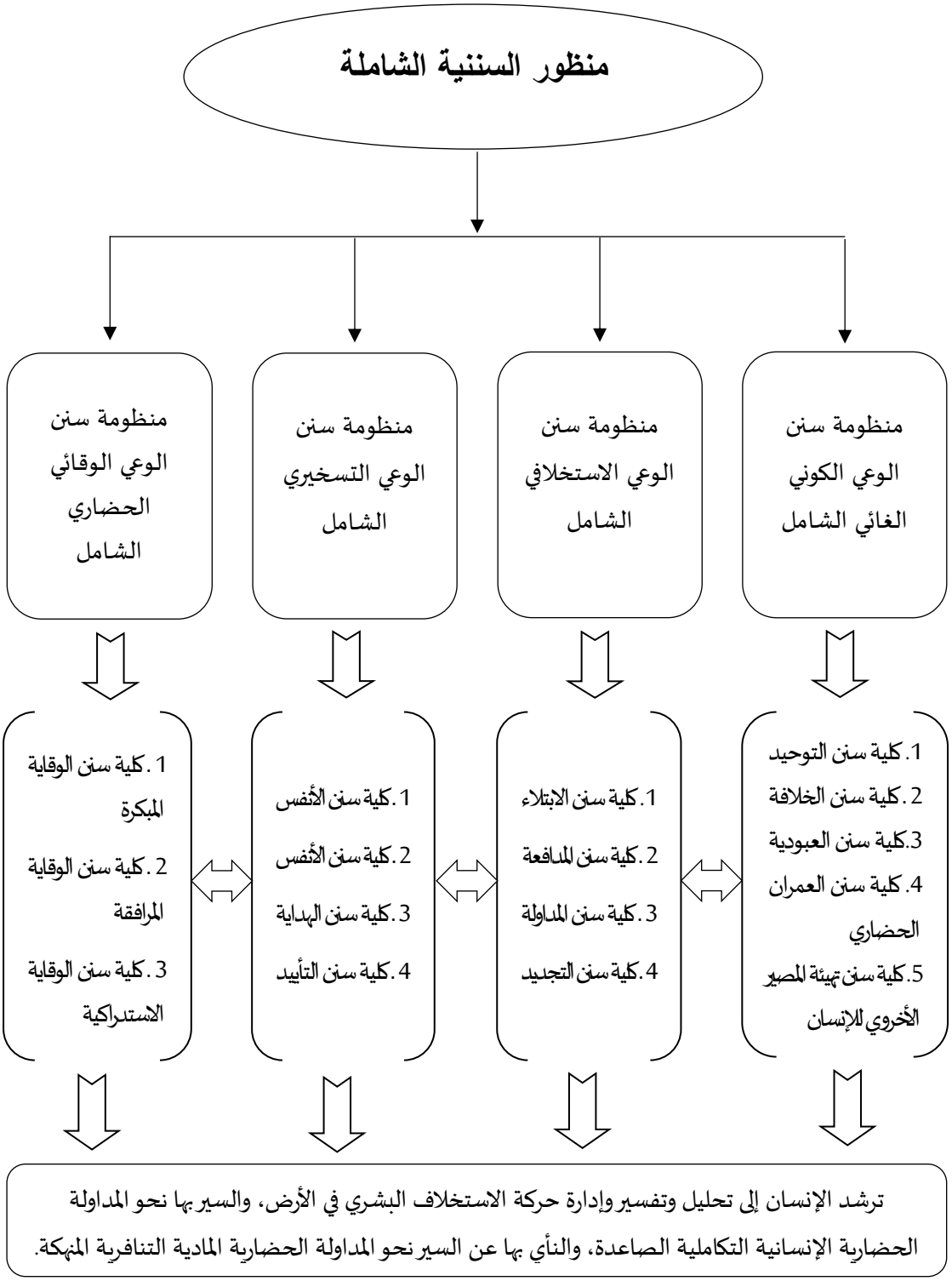

الشكل 1. معالم خريطة منظور السننية الشاملة

[18] الطيب برغوث، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر 2017.

إن معالم هذه الخريطة، ترشد الإنسان إلى "تحليل وتفسير وإدارة حركة الاستخلاف البشري في الأرض، والسير بها قدما في اتجاه المداولة الحضارية الإنسانية التكاملية الصاعدة، والنأي بها عن السير في اتجاه المداولة الحضارية المادية التنافرية المنهكة."[19]

ويُبين الطيب برغوث أهمية بناء الوعي بهذه المنظومات الأربع، لأن حياة الأفراد وحركة المجتمعات، تنسجم وتتكامل وتتوازن، وتعظم فعاليتها وخيريتها وبركتها ورحمتها العامة، ويتعزز رشدها وأمنها ونفوذها الحضاري، بقدر تمكن نخبها الفكرية والسياسية والاجتماعية من بناء الوعي بهذه المنظومات الأربع، لدى الأجيال، وإقامة الحياة على ضوء معطياته ومقتضياته.[20]

كما يحذر من أي اختلال في العلاقة بأي نوع من أنواع هذه المنظومات الأربعة، لأنه " ستكون له آثاره السلبية المباشرة أو غير المباشرة، على حياة الأفراد وحركة المجتمع، وعلى أمنهم ووضعهم ومركزهم الحضاري، لأن حركة المدافعة والمداولة الحضارية المحيطة بهم، ستدفع بهم إلى الخلف والضعف والتخلف والغثائية والتبعية الحضارية المهينة، إن هم لم يتداركوا أمرهم بسرعة وجدية، ويكيفوا وضعهم مع منطق ومقتضيات سنن الله في المدافعة والمداولة الحضارية." [21]

إن منظور السننية الشاملة، كما أسلفنا، يقوم على أربع منظومات كلية متكاملة، وكل منظومة منها تقوم هي الأخرى على كليات سننية متكاملة، كما هو مبين في الخريطة السننية السابقة.

وبما أن منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل لها ارتباط مباشر ببقية موضوع هذه المداخلة، نشير إلى كلياتها السننية في الآتي.

3- كليات منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل

تتكون منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل من أربع كليات سننية، نعرفها باختصار، على النحو الآتي:

1- كلية سنن الآفاق: "تزود الإنسان بالمعرفة السننية، المتصلة بكل ما هو مادي من شروط تحقيق خلافته في الأرض."[22]

2- كلية سنن الأنفس: "تزود الإنسان بالمعرفة السننية، المتصلة بكل ما هو إنساني ثقافي اجتماعي حضاري، من شروط تحقيق خلافته في الأرض."[23]

---

[19] الطيب برغوث، نحو أكاديمية وطنية لتنمية المعرفة والثقافة السننية، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر 2017، ص 36.

[20] الطيب برغوث، السننية الشاملة، مرجع سابق، ص 24. بتصرف.

[21] المرجع نفسه، ص 24.

[22] الطيب برغوث، نحو أكاديمية وطنية لتنمية المعرفة والثقافة السننية، المرجع السابق، ص 35.

[23] المرجع نفسه، ص 35.

3- كلية سنن الهداية: "تزود الإنسان بالمعرفة السننية، المتصلة بكل ما هو وحي وهداية إلهية مؤطِّرة ومرشِّدة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض."[24]

4- كلية سنن التأييد: تزود الإنسان بالمعرفة السننية، المتصلة بالعون والتأييد الإلهي، في كافة مراحل حركة الاستخلاف البشري في الأرض، خاصة عندما يتعلق الأمر بحالة عجز قدراته التسخيرية، المستمدة من الكليات الثلاث السابقة، عن مواجهة التحدي المطروح عليه، فيلجأ الى استثمار معطيات هذه الكلية السننية التسخيرية، بشروطها اللازمة.[25]

ما ذكرناه عن منظور السننية الشاملة اختصارا، بما يسمح به حيز هذه المداخلة، تناوله صاحبه تفصيلا، من خلال مداخل موضوعاتية متعددة ومتكاملة، تجاوزت 25 كتابا، وبأسلوب تميز بتنوعه في الوصف والتحليل قل نظيره في بابه!

ثالثا – منهج مالك بن نبي في دراسة "مشكلات الحضارة" وصناعة "إنسان الحضارة":

منذ ريعان شبابه، شعر المفكر مالك بن نبي بمحنة العالم الإسلامي، الذي كان يعيش على هامش التاريخ، مما جعله دائم التفكير في جوهر هذه المحنة وما آل إليه حال الأمة الإسلامية من ضعف وتخلف، بعد قوة وحضارة عالمية راقية دامت أكثر من ثمانية قرون! وكيف السبيل للخروج من هذه المحنة؟

لقد كان مالك بن نبي مسكونا بالبحث عن كيفية الدخول بالأمة الإسلامية في دورة حضارية جديدة، كما صرح هو بنفسه حين كتب: "إنّ المشكلات التي يواجهها العالم الإسلامي مشكلة الحضارة من طرفين، كيف تدخل الشعوب العذراء في دورة حضارية جديدة، وكيف تعود الشعوب الإسلامية التي خرجت من حلبة التاريخ لدورة حضارية جديدة. إذا سلّمنا بهذه الحقائق يبقى علينا أن نفكّر في مصير العالم الإسلامي، **وكيف يمكن لنا الدخول في دورة حضارية جديدة، هذه القضية باختصار هي التي وجّهت لها كل مجهوداتي المتواضعة منذ ثلاثين سنة.** "[26]

ولإعداد مشروع حضاري متكامل، يمكن لنا الدخول به في دورة حضارية جديدة، كان لزاما عليه أن يغوص في أعماق التاريخ، ليدرس أسباب نهوض وسقوط الحضارات، ويستنبط منها القوانين السننية الناظمة لها، ودراسة سائر "مشكلات الحضارة"، فاستخدم من أجل ذلك منهجا متميزا، شدّ انتباه الدارسين لفكره، فكتب أحدهم، وهو المفكر محمد شاويش: " وفي اعتقادي أننا الآن بحاجة إلى قراءة أفكار هذا المفكر الهادئ والتعلم منه، لا أعني بالضرورة أن نقره على كل تفاصيل تحليلاته، ولكن **يجب أن نستخلص ما هو قيم حقا، في فكر بن نبي وهو طريقته [منهجه] في رؤية مشكلة الحضارة الإسلامية، وتحليلها،**

---

[24] المرجع نفسه، ص 35.

[25] الطيب برغوث، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2017، ص 118. بتصرف.

[26] مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته وعطاؤه الفكري، دار فضاءات للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2016م، ص 250.

ورؤيته الجوانب التي يلفت انتباهنا، إلى ضرورة التركيز عليها."[27] وكتب البروفيسور محمد سعيد مولاي، أحد تلاميذ مالك بن نبي، معبرا عن إعجابه بمنهجه: "**يعتبر مالك بن نبي من أوائل المحدثين في معالجة مشكلات الحضارة، بمنهجية علمية دقيقة.**" [28]

1- سمات منهج مالك بن نبي عند دارسيه

وإذا كان سؤال المنهج هو السؤال الأساس في أي عمل فكري، فما هي سمات هذا المنهج المتميز الذي شدّ انتباه الدارسين لإنتاجه الفكري؟

من سمات هذا المنهج المتميز، في نظر الدارسين لفكره ما يلي:

1- **الشمول في النظرة** من الناحية الاجتماعية، ويتجلى ذلك في النظر إلى المشكلة الأساس، التي تنبثق عنها كل المشكلات الاجتماعية، فاستطاع بذلك تجاوز نظرة التجزئة.

2- **التحليل والتركيب:** فالتحليل والتركيب من الأدوات المنهجية لديه، إذ هو يلجأ إلى ذلك عند معالجة المشكلات، بتحليلها إلى عناصرها الأولية، ثم تركيبها لأدراك قانونها الحاكم لها، ومن نماذج ذلك موقفه إزاء مشكلة الحضارة.

3- **الجدلية:** وتلك أداة منهجية أخرى، يستخدمها مالك لبيان أثر التعارض في الاطّراد التاريخي للظاهرة، ونموذجها: الجدلية بين الروح والغريزة، في الاطّراد التاريخي لظاهرة الحضارة.

4- **الواقعية** في معالجة المشكلات، كما هي في أرض الواقع بمحاولة تحليلها، وإرجاعها إلى أصولها التي نشأت عنها وتطوّراتها، وما يمكن أن تنتهي إليه.

5- **السُّنّة أو القانون:** وهذه الميزة ذات ارتباط بالسمة السابقة، فهو حينما يعالج الأحداث في أرض الواقع، فإنه يرى أنها ظواهر، تخضع لسنن لا يمكن أن تعالج خارج نطاق السنن الحاكمة لها. وهذا المنظور أو ربط الأحداث بالسنن، من ميزات منهج مالك، وإنتاجه الفكري، تجمعه نظريته في الحضارة التي ينطلق فيها من هذا المنظور، بعكس المفكرين الآخرين الذين ينطلقون في معالجتها من ناحية النظم؛[29] و"ينطلق ابن نبي رحمه الله من قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ [الرعد:11]، ويجعلها أساس كل إنجازه الفكري، ويتخذ منها قانونا للتغيير بكل مستوياته، ويبحث في وقائع التاريخ، ليؤكد

---

[27] محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق-سوريا 1428هـ/2007م، ص 24.

[28] نور الدين مسعودان، مالك بن نبي حياته وآثاره شهادات ومواقف، دار النون للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ، ص 59.

[29] عبد الله العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت – لبنان 2012م، ص 504-505.

للعقل المسلم، أن الله تعالى يعلمنا بهذه الآية وآيات القرآن كلها، أن التغيير يخضع لسنن، علينا أن نكتشفها، ونوظفها، في بنائنا الحضاري في كل مستوياته."[30]

6- الموضوعية: وتلك سمة أخرى من سمات منهج مالك، إذ هو يتحرّى الموضوعية فيما يكتب، ويشدّد عليها، بحيث يتناول المشكلات كما هي، من دون مغالاة أو إهمال لبعض جوانبها، أو التقليل من شأنها، فلكل أمر ما يستحق، ولكل موضوع حدوده، التي يعالَج في نطاقها.[31]

ويمكن النظر إلى الموضوعية، التي ميزت منهج مالك بن نبي " في ثلاث مستويات: من حيث الرجوع إلى المصادر الأصلية المعتمدة، في دراسة ونقد الحضارة الغربية، ومن حيث النظر إلى الحقيقة التاريخية، وتسجيل أثر الفكرة في التاريخ، وتوجيهها للواقع التاريخي، ومن حيث نقد الأفكار في نسقها الداخلي، ثم من حيث المنهج المعتمد في تحليل الظاهرة وتركيبها، لمعرفة عناصرها الأساسية وكيفية تكوّنها وأدائها لدورها كوحدة مركبة."[32]

7- الأصالة: المقصود بالأصالة هنا، ما يتميز به منهج ابن نبي من حيث المرجعية الفكرية والروحية، وما يمتلكه من منهج ومصطلحات. وعلى الرغم من أصالة وتميز منهجه، فإنه كان منفتحا على التراث الإنساني في جميع مستوياته، فقد وظف الكثير من مصطلحات علم النفس، وعلم الاجتماع، والعلوم الطبيعية، والفلسفة، وفلسفة التاريخ، ضمن منظوره الحضاري.[33]

2- منهج مالك بن نبي كما أراه

وفي تقديري، أن المنهج المتميز، الذي تناول به مالك بن نبي "مشكلات الحضارة" وصناعة "إنسان الحضارة، أوسع وأشمل مما ذُكر آنفا، فهو "**منهج مركب بمقاربات متعددة التخصصات**"، وظف فيه مناهج البحث العلمي المعروفة، كالمنهج التاريخي، والمنهج التحليلي، والمنهج الوصفي، والمنهج المقارن، والمنهج التجريبي، بالإضافة إلى المنهج السنني الذي تميز به، وبمقاربات من العلوم الإسلامية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والعلوم الأساسية وعلوم المادة والحياة، وغيرها من العلوم المساعدة على دراسة الحضارة ومعالجة مشكلاتها، بأسلوب متميز جمع فيه بين النظرة السننية الشاملة والدّقة العلمية والعمق الفلسفي والواقعية والموضوعية.[34]

---

[30] بدران بن مسعود بن الحسن، الحضارة الغربية في الوعي الحضاري الإسلامي المعاصر.. أنموذج مالك بن نبي، طبعة بن مرابط، الجزائر 2015م، ص 95.

[31] عبد الله العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، المرجع السابق، ص 505.

[32] بدران بن مسعود بن الحسن، المرجع السابق، ص 105.

[33] المرجع نفسه، ص 101. -بتصرف.

[34] عبدالله لعريبي، مالك بن نبي .. المفكر الرسالي، ورقة بحثية شارك بها صاحبها في الملتقى الدولي الموسوم "فكر مالك بن نبي.. بين مظاهر الجمود وآليات التفعيل"، يومي 28 و29 نوفمبر 2017، جامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي، الجزائر. -بتصرف.

وكما يقال، فإن الموضوع هو الذي يفرض المنهج اللائق به، فموضوع الحضارة موضوع واسع باتساع وتعدد مجالاته، فهو يشمل "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدّم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموّه."[35]، وهذا لا يتم إلا بالارتقاء إلى مستوى معين من الثقافة والتربية والعلوم والفنون والعمران وإدارة الحياة، وغيرها.

كما أن صناعة "إنسان الحضارة" لا تتم إلا من خلال القضاء على أمراض الإنسان الذي خرج من الحضارة، كحال المسلم اليوم، وغرس القيم الحضارية فيه، وذلك بإعداده جسميا وروحيا وعقليا ووجدانيا، بالشكل المطلوب، حتى يستعيد مكانته ودوره ورسالته في الحياة.

وهكذا، وبالنظر إلى طبيعة "مشكلات الحضارة"، ومتطلبات صناعة "إنسان الحضارة" في أبعاده الرباعية، السالفة الذكر، فإن" **المنهج المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات**"، هو الأنسب والملائم توصيفا وتحليلا ومقاربة وعلاجا.

إن مالك بن نبي استطاع أن يسلك هذا المنهج المركب، بفضل ما تعلمه من مختلف مناهج البحث العلمي، ودراسته لمجموعة من العلوم، كالعلوم الدينية، وتوسعه في دراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية، كالفلسفة والتاريخ وعلم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والاقتصاد والسياسة، وتلقيه العلوم الدقيقة، أثناء دراسته كمهندس كهربائي، كالرياضيات والفيزياء والكيمياء، واطلاعه على علوم المادة والحياة.

وستتضح أكثر ملامح هذا المنهج المركب، الذي سلكه مالك بن نبي، من خلال ما سنعرضه، في الفقرة الموالية، من المناهج التي اعتمدها، والمقاربات المتعددة التخصصات التي وظفها.

رابعا – سبق مالك بن نبي في استثمار بعض أبعاد منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل

انطلاقا من تشخيصه لحال المسلمين ومشكلتهم التي أرجعها إلى "مشكلة حضارة"، لأنه يرى "أن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"[36]، كرس مالك بن نبي حياته كلها في دراسة "مشكلات الحضارة"، فألف سلسلة "مشكلات الحضارة"، المكونة من أزيد من 25 كتابا، تتويجا لهذا الجهد الجبار.

ويُعد كتاب "شروط النهضة"، من بين أبرز وأشهر كتبه، وهو في مجمله شرح مفصل لعناصر معادلته الشهيرة: الحضارة = إنسان + تراب + وقت.

---

[35] مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 2013، ص 43.

[36] مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م ، ص 19

وتجدر الإشارة إلى أن "الفكرة الدينية" لم تظهر في هذه المعادلة، رغم تأكيد مالك بن نبي على أهميتها في بناء الحضارة، فلماذا يا ترى؟

والجواب، هو أن هذه المعادلة ليست معادلة رياضية، ولكنها معادلة على شاكلة المعادلات الكيميائية، التي لا يكتب فيها "المحفز" (Catalyseur) الذي يحدث التفاعل المطلوب بين عناصرها، فلذلك لم يكتب مالك بن نبي "الفكرة الدينية" في معادلته، لأنه اعتبرها بمثابة " المحفز"، الذي يحدث التفاعل المطلوب بين الإنسان والتراب والوقت، فيحدث الإبداع وتبنى الحضارة، لأن الحضارة لا تُبنى من خلال تكديس منتجات الحضارات الأخرى، ولكن بحل مشكلاتها الثلاث من أساسها، وهي: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت.

ومشكلة الإنسان هي المعضلة الكبرى، لأن الإنسان صانع الحضارات، لذلك "**يجب أولا أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى.**"[37]

ولحل هذه المشكلات الثلاث، سلك مالك بن نبي "**المنهج المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات**"، المشار إليه من قبل، والذي ستتضح ملامحه أكثر من خلال الإشارة إلى بعض المناهج التي اعتمدها فيه، وعرض بعض المقاربات المتعددة التخصصات، على سبيل المثال لا الحصر.

1- المناهج المعتمدة:

اعتمد مالك بن نبي عدة مناهج في منهجه "المركب"، نعرضها فيما يلي:

1- المنهج التاريخي: وظف مالك بن نبي "المنهج التاريخي في كتاباته، واتضحت من خلالها قدرته الكبيرة على تحديد المنعطفات التاريخية وضبط مميّزات كل دولة وشعب وخصائص كل قرن من الزمن وبيان إضافة كل حضارة وإبراز الدور البارز للشخصيات العظمى بشكل دقيق."[38]

2- المنهج التحليلي: أشار مالك بن نبي الى هذا المنهج في مقدمة كتابه الظاهرة القرآنية، الذي لم يُتح له أن يرى النور في صورته الكاملة، لتعرضه للحريق في ظروف خاصة، ولذلك يقول: " حاولنا أن نجمع العناصر التي بقيت من الأصل مكتوبة في قصاصات، أو مسجلة في الذاكرة، فأنقذنا بذلك – على ما نعتقد – جوهر الموضوع، وهو الاهتمام بتحقيق **منهج تحليلي** في دراسة الظاهرة القرآنية. "[39]

ثم علّل الغاية من اتخاذ هذا المنهج: " وهو منهج يحقق من الناحية العملية هدفاً مزدوجاً هو:

1- أنه يتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضج في الدين.

---

[37] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 75.

[38] مولود عويمر، مرجع سابق، ص 121.

[39] مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص53.

2- وأنه يقترح إصلاحا مناسبا للمنهج القديم في تفسير القرآن."[40]،

3- المنهج الوصفي: استعمل مالك بن نبي المنهج الوصفي لوصف مختلف مراحل الحضارة: مرحلة الروح، ومرحلة العقل، ومرحلة الغريزة، كما وصف الأفكار بالأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة، والأفكار الأصيلة والأفكار الفاعلة، والأفكار الميتة والأفكار المميتة، والأفكار المخذولة.

4- المنهج المقارن: نجد هذا المنهج حاضرا في كتابات مالك بن نبي عند مقارنته، مثلا، بين الانسان في حالة سابقة للحضارة، أي قبل بدء دورة من الدورات الحضارية أو عند بدايتها، والانسان الذي تفسخ حضاريا وسلبت منه الحضارة تماما، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة.

5- المنهج التجريبي: "لجأ مالك بن نبي إلى المنهج التجريبي ونقله من مجال البيولوجيا (Biologie) إلى مجال التاريخ عن طريق ما سماه بالبيو-تاريخ (Bio-histoire) ، فتصفح في كتاب التاريخ المنظور وقرأ فيه تطور الحضارات وتتابعها من نشأتها إلى أفولها، واستعان في قراءتها بما توفر لديه من بحوث ومؤلفات، مثل مقدمة ابن خلدون، وتاريخ الحضارات للمؤرخ توينبي (1889-1975) . فتبين له أن الفكرة الدينية هي المفاعل الحقيقي للحضارات، ذلك لأدراكه أن ما من مدنية قامت على وجه الأرض إلا وظهر معها دين من الأديان بمبادئه ومقدساته وآلهته، يتحكم في زمام أمر تلك المدنية ويشد أواصرها."[41]

6- المنهج السنني: يمكن اعتبار مالك بن نبي أحد رواد المنهج السنني بعد العلامة ابن خلدون، وذلك بقيامه بالكشف عن السنن الإلهية المبثوثة في القرآن الكريم، والمستخرجة من حركة التاريخ، من أجل استثمارها في فهم أسرار صعود الحضارات وسقوطها، وتوظيفها في البناء الحضاري مجددا.

7- منهج التخلية والتحلية: وظف مالك بن نبي منهج التخلية والتحلية، في صناعة "إنسان الحضارة"، بمفهومه ومعناه، دون أن يسميه بهذه التسمية، حيث يقول: "وإنه ليجب بادئ الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا، وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة، ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة."[42] فهو يدعو الى التخلية عن كل ما هو سلبي في عادتنا وتقاليدنا من عوامل قتالة، حتى يصفو الجو للتحلية بالعوامل الحية والداعية إلى الحياة.[43]

---

[40] المرجع السابق، ص53.

[41] محمد سعيد مولاي، معالجة مالك بن نبي لمشكلات الحضارة على ضوء المصطلحات العلمية، المجلس الإسلامي الأعلى – 27 جمادى الأولى 1441هـ/11 جانفي 2021م-بتصرف

[42] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص86.

[43] لنا بحث، لم ينشر بعد، نبين فيه بوضوح تام كيف وظف مالك بن نبي منهج التخلية والتحلية في صناعة إنسان الحضارة.

5- المقاربات المتعددة التخصصات:

ونقصد بها مختلف العلوم والمعارف التي قارب بها ملك بن نبي دراسته لمشكلات الحضارة وصناعة إنسان الحضارة، الى ثلاث مجموعات كبري: 1- العلوم الإسلامية، 2- العلوم الإنسانية والاجتماعية، 3- العلوم الأساسية وعلوم المادة والحياة.

1- العلوم الإسلامية:

بفضل ثقافته الإسلامية التي اكتسبها في شبابه في الجزائر، وفي مصر لما أقام فيها بضع سنين، استطاع مالك بن نبي أن يقدم لنا دراسة غير مسبوقة عن القرآن الكريم في مؤلفه "الظاهرة القرآنية"، وهي باكورة انتاجه الفكري، معلنا عن مرجعيته الأصيلة في بلورة مشروعه الحضاري.

واستمر في الاستشهاد والبناء على القرآن الكريم بتوظيف آياته في جل مؤلفاته، كلما دعت الحاجة الى ذلك، كما استشهد كذلك ببعض الأحاديث النبوية لنفس الغرض.

وحتى لا نطيل، في هذه الورقة البحثية، بذكر كل الآيات الكريمات وكل الأحاديث النبوية الواردة في كتبه، فضلنا ذكر عددها في بعض كتبه، على سبيل المثال لا الحصر، كما هو مبين في الشكل 2.

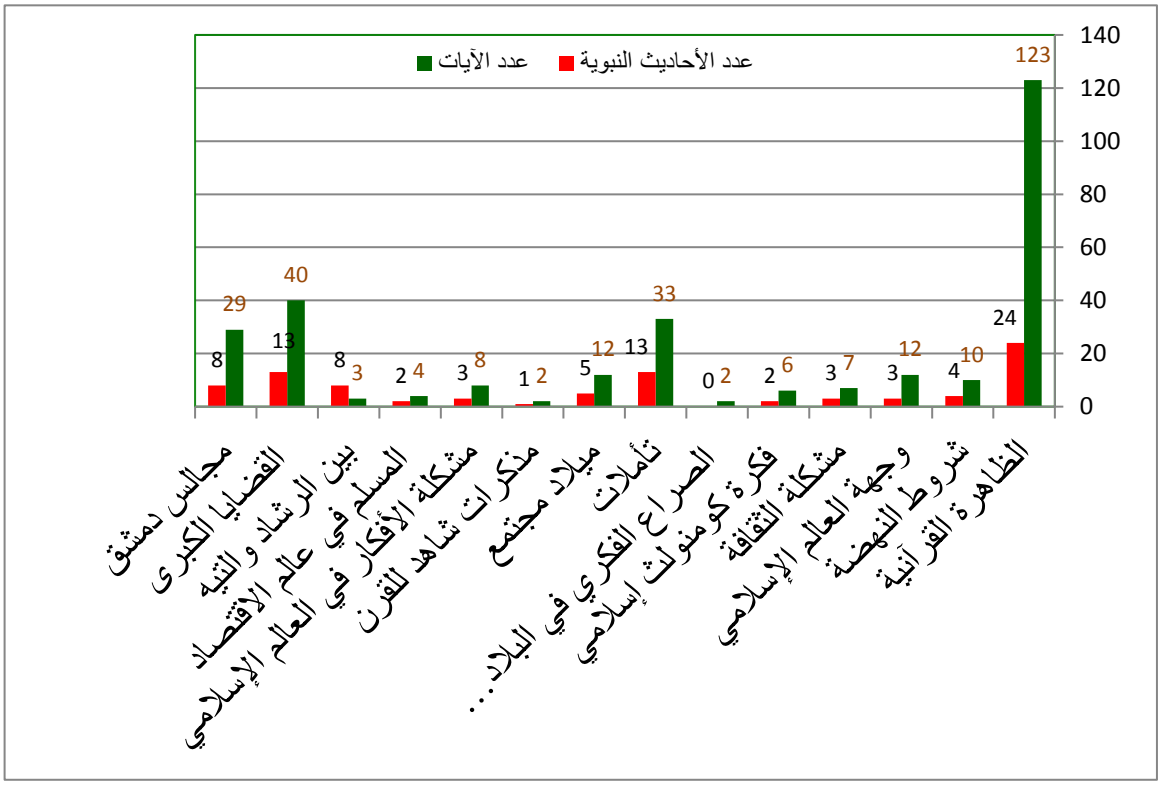

الشكل 2. إحصائيات الآيات والأحاديث الواردة في بعض مؤلفات مالك بن نبي.

نلاحظ من خلال هذه الإحصائيات أن:

– كتاب الظاهرة القرآنية، حظي بأكبر عدد من الآيات والأحاديث النبوية من حيث الاستشهاد بها، وهذا راجع لطبيعة موضوع الكتاب.

– الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي ظل حاضرا في جل مؤلفات مالك بن نبي، مما يدل على أصالة فكره، واستثماره للوحي، قرآنا وسنة، في مشروعه الحضاري.

إن القرآن الكريم، كما هو معروف، هو كلام الله الذي ﴿**لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت:42]، وهو غني بالسنن الإلهية الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، وعليه فاستشهاد مالك بن نبي بها، هو توظيف واستثمار لها في معالجة "مشكلات الحضارة" وصناعة "انسان الحضارة".

وتجدر الإشارة إلى أن مالك بن نبي اتخذ من قوله تعالى ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ [الرعد:11]، قانونا اجتماعيا للتغيير، واستل منه مقولته السننية الشهيرة "إنها لشرعة السماء: غيِّر نفسك تُغيِّر التاريخ!"[44]، واستشهد بهذه الآية في كثير من كتبه (الشكل 3)، وفي سياقات متعددة.

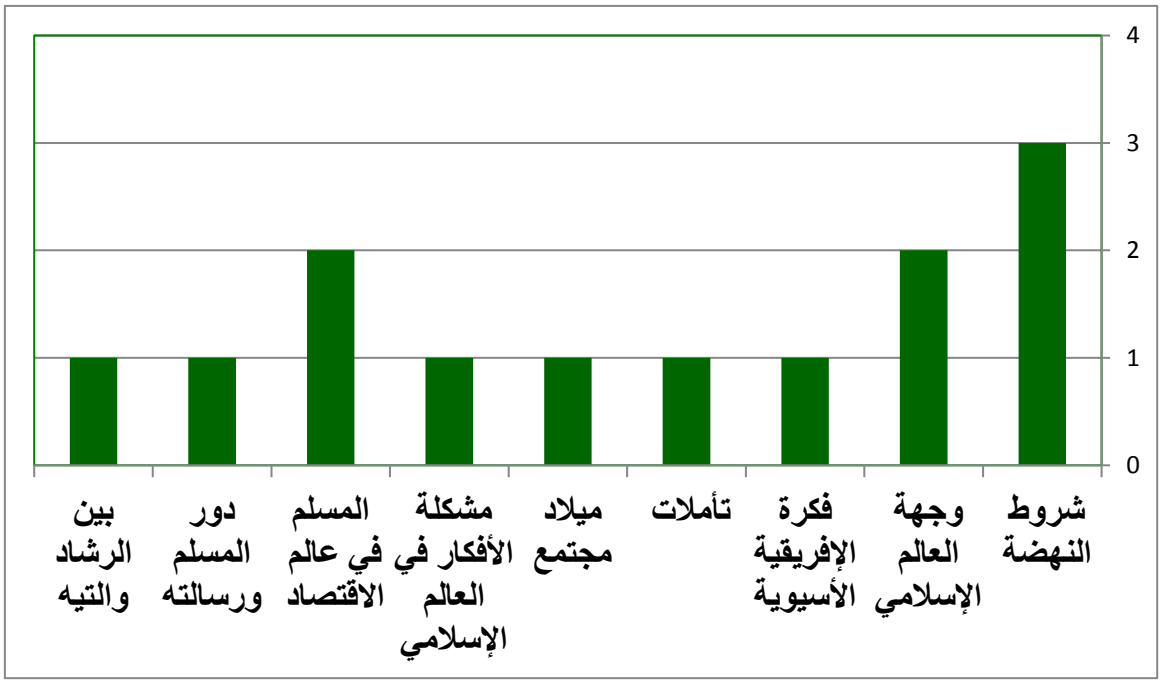

الشكل 3. تواتر قوله تعالى ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ في بعض كتب مالك بن نبي.

[44] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص35.

2- العلوم الإنسانية والاجتماعية:

وظف مالك بن نبي العديد من العلوم الإنسانية والاجتماعية في دراسته لمشكلات الحضارة، نشير الى بعضها في الآتي.

- **التاريخ وفلسفته:** لم يكتف مالك بن نبي بإمعان النظر في التاريخ وأحداثه، لكنه غاص في أعماقه، باحثا عن سننه الناظمة لحركة الحضارات صعودا وأفولا، لقناعته الراسخة بأنه: "يجب التأمل في سنن التاريخ التي لا تغيير لها، كما أشار إليها القرآن الكريم ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾ [الفتح:23]، وكما وضحها ذلك العبقري، عمدة المؤرخين (ابن خلدون)."[45]

- **علم الاجتماع:** وظف مالك بن نبي هذا العلم، في جل مؤلفاته، بشكل عام، وتوسع في هذا التوظيف في كتابه "ميلاد مجتمع"[46] في جزئه الأول الخاص بشبكة العلاقات الاجتماعية، الذي تناول فيه مواضيع شتى منها: النوع والمجتمع، تفسيرات الحركة التاريخية، التاريخ والعلاقات الاجتماعية، أصل العلاقات الاجتماعية، طبيعة العلاقات، الثروة الاجتماعية، المرض الاجتماعي، المجتمع والقيمة الخلقية، الدين والعلاقات الاجتماعية، شبكة العلاقات والجغرافيا، العلاقات الاجتماعية وعلم النفس، فكرة التربية الاجتماعية، شروط التربية الاجتماعية.

- **علم النفس:** استعان مالك بن نبي بعلم النفس ومنهجه، في صناعة "إنسان الحضارة" وشرح الظاهرة الحضارية، فحاول "تطبيق منهج التحليل النفسي في شرح منحى صعود وسقوط الحضارات؛ ويتبين ذلك بصفة أوضح عندما يتعرض لعوامل سقوط الحضارة الإسلامية حيث أكد أن منحنى السقوط تخلفه عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل؛ وهذه العوامل هي الغرائز التي تظل ضعيفة ومتوارية عندما تكون الجوانب الروحية والعقلية قوية وظاهرة (متغلبة)."[47]

وفي هذا يقول ابن نبي: "...وطالما أن الإنسان في حالة يتقبل فيها توجيهات الروح والعقل المؤدية إلى الحضارة ونموها، فإن هذه العوامل النفسية تختزن بطريقة ما فيما وراء الشعور وفي الحالة التي تتكمش فيها تأثيرات الروح والعقل تنطلق الغرائز الدنيا من عقالها، لكي تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية. وكذلك كان شأن المسلم فقد بعث فيه الدين روحا محركا للحضارة فلم يلبث بعد مرحلة قضاها في الخلافات والحروب أن عاد إلى حيث هو الآن"[48].

---

[45] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص54.

[46] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص؟

[47] مصطفى عشوي، إنسان الحضارة في فكر ابن نبي، دراسة متاحة على الشبكة العنكبوتية.

[48] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 53.

– **علم التربية:** نجد علم التربية حاضرا في الإنتاج الفكري لمالك بن نبي، فهو على سبيل المثال، يعرف الثقافة بمعناها التربوي، يقول: "وإذا حاولنا أن نحدد الثقافة بمعناها التربوي، فيجب أن نوضح هدفها، وما تتطلبه من وسائل التطبيق. فأما الهدف فإنه قد اتضح بما قدمنا (...) من أن الثقافة ليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي"[49]

– **علم السياسة:** لا يخلو علم السياسة في الفكر البنابي، وهو حاضر بشكل أساسي في "فكرة الإفريقية الأسيوية"[50]، وهي دراسة أعدها بمناسبة انعقاد مؤتمر باندونج سنة 1955، وكذلك في "فكرة كومنولث إسلامي"[51] وفي محاضرته حول الديمقراطية في الإسلام، التي ألقاها بنادي الطلبة المغاربة سنة 1960 والمنشورة في "تأملات"[52].

كما خصص الفصل الثالث من كتابه "بين الرشاد والتيه" حول السياسة، تناول فيه المواضيع التالية: السياسة والأخلاق، السياسة والأيديولوجية، السياسة والثقافة، السياسة وحكمة الجماهير، السياسة والبولتيك.[53]

– **الاقتصاد:** أفرد مالك بن نبي لموضوع الاقتصاد، كتابا سماه "المسلم في عالم الاقتصاد"، وهو في جوهره محاولة جادة لتخليص الفكر الإسلامي من بعض العقد، التي تستولي على اجتهاده في مجال الاقتصاد فتجمده، ودعوة ألا يطأطئ المسلم الرأس أمام عجل الذهب، [أي الرأسمالية]، وأمام زخرف القول الماركسي، فعليه أن يجتهد في اكتشاف طريق ثالث، يمكنه من مواجهة ظروف التخلف وضرورات العصر، في الحدود المشروعة على سنة الله ورسوله.[54]

وتجدر الاشارة الى أن مالك بن نبي ذكر فشل مخطط الخبير الاقتصادي الألماني الدكتور (شاخت)، في النهوض باقتصاد اندونيسيا، رغم توافر الوسائل المادية والبشرية الكفيلة بتحقيقه، علما أن مخططه نجح في النهوض بألمانيا اقتصاديا بعد الحرب العالمية الثانية.

وأرجع مالك بن نبي هذا الفشل، إلى أن (شاخت) أخذ في الحسبان معادلة واحدة، وهي "المعادلة البيولوجية"، التي تسوي بين الانسان وأخيه الانسان في كل مكان، وأغفل المعادلة الثانية، وهي "المعادلة

---

[49] المرجع نفسه، ص 86.

[50] مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

[51] مالك بن نبي، فكرة كومنولث إسلامي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

[52] مالك بن نبي، تأملات، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

[53] مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 71–102.

[54] مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 105–106، بتصرف

الاجتماعية"، التي تختلف من مجتمع لآخر، وتختلف في المجتمع الواحد من عصر إلى آخر، حسب الاختلاف في درجة النمو أو التخلف.[55]

كما خصص الفصل الخامس من كتابه "بين الرشاد والتيه" حول الاقتصاد، تناول فيه المواضيع التالية: مؤتمر 77، مؤتمر نيودلهي، جولة البترول العربي، شروط الإقلاع الاقتصادي، العمل والاستثمار، اقتصاد القوت والتنمية، نشتري أم نصنع[56]

– "**علم الأفكار**": نقصد به "العلم" الذي يُبيّن ماهية الأفكار وقيمتها وطبيعتها وأصنافها وعلاقاتها "بعالم الأشخاص" و"عالم الأشياء"، وكيف تكون مصدرا للخير والرحمة للإنسانية، وكيف تتحول الى سلاح فتاك في حلبات الصراع.

ونعتقد أن مالك بن نبي كان سبّاقا الى التأسيس لهذا العلم، من خلال "مشكلة الافكار في العالم الإسلامي" و"الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، الذي بَيّن فيه جزءا من واقع الصراع الفكري في زمن معين وأمكنة محدّدة.

3– العلوم الأساسية وعلوم المادة والحياة:

ونقصد بها العلوم الدقيقة من رياضيات وفيزياء وكمياء، وعلوم الأرض، وعلوم الحياة كالبيولوجيا، وغيرها.

– **الرياضيات:** يتميز الإنتاج الفكري لمالك بن نبي، على غيره من المفكرين، بتوظيفه للرياضيات في شرح بعض "مشكلات الحضارة"، بصياغته المعادلات الرياضية، واستعماله الرسوم البيانية، والأشكال الموضحة، رغم صعوبة ذلك في العلوم الإنسانية.

– **الكيمياء:** يجيب مالك بن نبي على الاعتراض التالي: إذا كانت الحضارة في مجموعها ناتجا للإنسان والتراب والوقت، فلم لا يوجد هذا الناتج تلقائيا حيثما توفرت– هذه العناصر الثلاثة؟ بلجوئه الى التحليل الكيماوي للماء. يقول: فالماء في الحقيقة نتاج للهدروجين والأكسجين، وبرغم هذا فهما لا يكونانه تلقائيا، فقد قالوا إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل (مركب) ما، بدونه لا تتم عملية تكون الماء. وبالمثل لنا الحق في أن نقول: إن هناك ما يطلق عليه (مركِّب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، فكما يدل عليه التحليل التاريخي (...)، نجد أن هذا (المركِّب) موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ.[57]

– **البيولوجيا:** وظف مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة" " قانون تكيف الأعضاء في مجال البيولوجيا (Loi d'adaptation des organes)، "عن طريق المماثلة بالبيولوجيا في مجال البيو–تاريخي

---

[55] المرجع السابق، ص 90–91، بتصرف.

[56] مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 145–196.

[57] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 50، بتصرف.

لدراسة مسألة التغيير في المجتمعات البشرية، وبذلك يكون قد أتى بتفسير علمي هو صاحب السبق إليه، لسنة إلهية شاملة اتخذها شعارا لدراساته، على غرار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتتمثل في قوله جل وعلا ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:11]"[58]

وينبه أ.د. محمد سعيد مولاي إلى أن قانون تكيف الأعضاء ذكره مالك بن نبي في الطبعة الفرنسية للكتاب، ولم يرد ذكره في الطبعة العربية.[59]

– **علم الطاقة المائية:** استعان مالك بن نبي بعلم الطاقة المائية في بيان حالة الانسان قبل بدء دورة من الدورات الحضارية وفي نهايتها. يقول: "ونستطيع التمثيل لهذه الاعتبارات بصورة مستقاة من "علم الطاقة المائية" ،وذلك باتخاذنا كحد للمقارنة " جزئيا " من الماء في وضعين مختلفين: يكون في أولهما "قبل" وصوله إلى خزان ينتج الكهرباء وفي ثانيهما "بعد" خروجه منه. فهذا الجزيء عندما يكون " قبل " الخزان: يعطينا صورة للإنسان السابق على الحضارة، أي الذي لم يدخل بعد في دورة حضارة معينة: فهو جزيء منطو على طاقة مذخورة معينة، قابلة لتأدية عمل نافع، إذا ما استعملتها أجهزة الخزان في الري أو في انتاج الكهرباء.

غير أن هذا الجزيء يصبح قاصرا عن تأدية العمل نفسه، منذ أن يصبح "بعد" الخزان، لأنه يكون قد فقد طاقته المذخورة: وهو ما يعطينا صورة للإنسان المنحل حضاريا أو الإنسان الذي خرج من دورة الحضارة، ذلك أن هذا الجزيء الخارج من خزانه، لم يعد في امكانه أن يستعيد حالته إلا بواسطة عملية جوهرية تتمثل في عملية التبخر، التي ترجعه إلى حالة بخارية. وفي التيارات الجوية الملائمة التي ترجعه إلى أصله، حيث يتم تحوله من جديد إلى جزيء مائي واقع "قبل" خزان معين، تلك صورة للإنسان قبل دخوله في دورة حضارة من الحضارات، وبعد خروجه منها."[60]

ويمكننا القول، بالنظر إلى السنن الإلهية المبثوثة في العلوم المختلفة التي وظفها مالك بن نبي، أنه كان مبادرا في النفاذ إلى جوهر المعرفة السننية، مع احترام المنهج المناسب لذلك النوع من المعرفة.

خامسا– موقع منهج مالك بن نبي في استثمار السنن الإلهية من منظور السننية الشاملة:

نحاول بيان موقع منهج مالك بن نبي من منظور السننية الشاملة، في مجال الكشف عن السنن الإلهية واستثمارها، من حيث بيان مجال الاستثمار، وطبيعة المنهج المتبع، والمنظومات السننية الكلية المعتمدة، والكليات السننية المُستثمَرة في المنظومة التسخيرية.

---

[58] محمد سعيد مولاي، معالجة مالك بن نبي لمشكلات الحضارة على ضوء المصطلحات العلمية، مرجع سابق.

[59] المصدر نفسه، بتصرف.

[60] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 78–79.

وفي هذا الإطار، نشير إلى أن مالك بن نبي كان مسكونا بهّم البحث عن كيفية الدخول بالأمة الإسلامية في دورة حضارية جديدة، فانصب اهتمامه على دراسة "مشكلات الحضارة" وصناعة "إنسان الحضارة"، وأمعن النظر في جذور مشكلات الحضارة، متجاوزا النظرة الجزئية والسطحية، باحثا عن السنن والقوانين الكفيلة بالعودة بالأمة الإسلامية إلى حلبة التاريخ مجددا، وقد استثمر ما أمكنه الوقوف عليه من السنن الإلهية في مجال الحضارة.

ومن أجل بلوغ أهدافه تلك، سلك مالك بن نبي "**المنهج المركب بمقاربات متعددة التخصصات**"، موظفا مختلف **المعارف السننية** التي أتيحت له، بشكل متكامل ومتوازن وغير تجزيئي ولا تنافري، رغم أنه لم يعن بتصنيف السنن الإلهية إلى منظومات سننية، كما فعل الطيب برغوث، لأن الحاجة لم تدعه إلى ذلك في دراسته لمشكلات الحضارة وصناعة إنسان الحضارة.

ومن خلال تحليل مؤلفات مالك بن نبي؛ يمكننا ملاحظة أنه استند في مشروعه الحضاري إلى إحدى أهم منظومات منظور السننية الشاملة، وهي **منظومة السنن التسخيرية؛** ضمن الكليات السننية التالية:

- كلية **سنن الآفاق:** علوم المادة والحياة...
- كلية **سنن الأنفس:** فلسفة التاريخ، علم النفس، علم الاجتماع، الاقتصاد، السياسة...
- كلية **سنن الهداية:** العلوم الإسلامية

ويلخص الجدول الآتي، مختلف عناصر المقارنة بين مالك بن نبي والطيب برغوث في استثمار السنن الإلهية.

المفكر	مجال استثمار السنن	طبيعة المنهج	المنظومات السننية	كليات سنن المنظومة التسخيرية
مالك بن نبي	الحضارة	المنهج المركب بمقاربات متعددة التخصصات	المنظومة التسخيرية	كلية سنن الآفاق كلية سنن الأنفس كلية سنن الهداية
الطيب برغوث	الكون	منهج المعرفة السننية الشاملة	المنظومة الكونية الغائية المنظومة الاستخلافية المنظومة التسخيرية المنظومة الوقائية	كلية سنن الآفاق كلية سنن الأنفس كلية سنن الهداية كلية سنن التأييد

الجدول 1: عناصر المقارنة بين مالك بن نبي والطيب برغوث في استثمار السنن الإلهية.

خاتمة:

يتبين لنا، مما سبق:

1- أن المنهج المتميز، الذي تناول به مالك بن نبي "مشكلات الحضارة" وصناعة "إنسان الحضارة"، هو "منهج مركب بمقاربات متعددة التخصصات"، وظف فيه مناهج البحث العلمي المعروفة، بمقاربات من العلوم الإسلامية، والإنسانية والاجتماعية، والعلوم الأساسية وعلوم المادة والحياة، بأسلوب جمع فيه بين النظرة السننية الشاملة والدّقة العلمية والعمق الفلسفي والواقعية والموضوعية.

2- وبالنظر الى طبيعة "مشكلات الحضارة"، ومتطلبات صناعة "إنسان الحضارة"، فإن "المنهج المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات"، هو الأنسب والملائم، توصيفا وتحليلا ومقاربة وعلاجا.

3- إن مالك بن نبي والطيب برغوث يتفقان على الأهمية البالغة لموضوع السنن الإلهية، كشفا واستثمارا، كلٌ في مجاله، فالأول استثمرها في مجال الحضارة، والثاني في مجال الكون.

4- والمنهجية المتبعة عندهما لا تختلف في جوهرها، لأن كل واحد منهما وظف مختلف المعارف السننية بشكل متكامل ومتوازن وغير تجزيئي ولا تنافري، كلٌ في مجاله ودائرة اهتمامه، والمنهجان يصبان في نهر التكامل المعرفي.

5- إن مالك بن نبي كان مبادرا في النفاذ إلى جوهر إحدى أهم المنظومات المشكلة لخريطة منظور السننية الشاملة؛ ألا وهي منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل، القائمة على استثماره لسنن الآفاق والأنفس والهداية، أما الطيب برغوث أضاف لها سنن التأييد، فكان سباقا في التأسيس لها، وفي محاولة جعلها علما على غرار علوم الهداية.

6- أن الطيب برغوث توسع، من خلال منظوره، في دراسة السنن الإلهية، كشفا واستثمارا، أفقيا من خلال المنظومات السننية الكبرى الأربع، وعموديا بالتعمق في الكليات السننية الناظمة لكل منظومة، فكان مبدعا في مسلكه هذا.

المراجع

1. الطيب برغوث، السننية الشاملة، مركز الشهود الحضاري، إسطنبول- تركيا 1443هـ/ 2021م،

2. الطيب برغوث، سلطة المنهج في الحركة النبوية، الجزائر، دار النعمان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2019 م.

3. الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، الجزائر، دار النعمان للطباعة والنشر، ط 1، 2019 م.

4. الطيب برغوث، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر 2017.

5. الطيب برغوث، نحو أكاديمية وطنية لتنمية المعرفة والثقافة السننية، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر 2017

6. بدران بن مسعود بن الحسن، الحضارة الغربية في الوعي الحضاري الإسلامي المعاصر .. أنموذج مالك بن نبي، طبعة بن مرابط، الجزائر 2015م،

7. عبد الله العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت – لبنان 2012م.

8. عيسى بوعافية، ماهية "السننية الشاملة"، سبتمبر 2023، https://www.facebook.com/mountada.aldirassat

9. عبدالله لعريبي، مالك بن نبي .. المفكر الرسالي، ورقة بحثية شارك بها صاحبها في الملتقى الدولي الموسوم "فكر مالك بن نبي.. بين مظاهر الجمود وآليات التفعيل"، يومي 28 و29 نوفمبر 2017، جامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي، الجزائر.

10. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

11. مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 2013م.

12. مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

13. مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

14. مالك بن نبي، تأملات، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

15. مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

16. مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

17. مالك بن نبي، فكرة كومنولث إسلامي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

18. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ج1 شبكة العلاقات الاجتماعية، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.

19. محمد سعيد مولاي، معالجة مالك بن نبي لمشكلات الحضارة على ضوء المصطلحات العلمية، المجلس الإسلامي الأعلى – 27 جمادى الأولى 1441هـ/11 جانفي 2021م

20. محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق–سوريا 1428هـ/2007م

21. مصطفى عشوي، إنسان الحضارة في فكر ابن نبي، دراسة متاحة على الشبكة العنكبوتية.

22. مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة .. مسيرته وعطاؤه الفكري، دار فضاءات للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2016م.

23. نور الدين مسعودان، مالك بن نبي حياته وآثاره شاهدات ومواقف، دار النون للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ.